

ربنا انا اطعنا ساداتنا وكبراءنا

﴿ فأضلونا السبيلا ﴾

٥

(المرشدون والمربون - أو - المتصوفة والصوفيون)

الاسلام دين علم الناس أن يعتمدوا في سعادتهم الدنيوية والاخروية على أعمالهم النفسية والبدنية ، وفضل أهل العمل والكسب على المنقطعين لعبادة الله المعتمدين في أمر معاشهم على من يؤمنهم من أهلهم أو غيرهم ، وأقام لكل قاصر وليا يتولى شؤونه ويعنى بتربيته حتى يرشد ويقوى على العمل وعند ذلك يدعه وشأنه ، وجعل لكل عاجز فيما يتمده وينفق عليه ويقوم بأمره الذي عليه مدار حياته ، وجعل هذه الولاية والقيام في الاقربين لانهم أولى بالمعروف وأقرب الى العناية الصحيحة بأمر الصغير والعاجز على ترتيب معروف في فن الفقه ، فمن لم يكن له أقارب فعلى أهل وطنه من المسلمين الذين جعلهم الاسلام عائلة واحدة وفرض عليهم القيام بأمر بعضهم على ترتيب يراعى فيه الاقرب فالاقرب نسبا وجواراً ووطناً وديناً . بل فاض صدق الاسلام وعمت رحمته فعلم الآخذين به أن يشملوا ببنائهم هذه كل من نقياً ظلالهم ودخل في سلطانهم من أي دين كان ، فهو يحض على تربية اليتيم واطعام الجائع وكسوة العاري واعتقاد الضعيف وتجهيز الميت من غير المسلمين اذا لم يوجد لهؤلاء اولياء من ذويهم وأقاربهم وجعل ذلك حقاً على المسلمين للذميين على تفصيل يعرف من النقه

ومن وظائف الحكم الزام المسلمين بما ذكر مع مراعاة شروطه
إذا هم قصرُوا فيه

وغرضنا من هذه الكلمات هنا بيان ان تعميم التربية واجب في
الإسلام . وكما يجب تربية كل صغير حتى يكبر ويرشد يجب الأخذ على
يد كل كبير إذا اجترح السيئات واقترب المنكرات أو أخل بالآداب
العامة وعبث بمصالح الناس وذلك بالزامه بترك المنكر فعلاً أو إرشاده إلى
ذلك قولاً . ومن أخل بهذا الواجب هبط إلى أسفل درج الإسلام
وسقط في أضعف الإيمان الذي ليس بينه وبين الكفر إلا خطوة واحدة
(اذ لا معنى لكونه أضعف الإيمان الا هذا) وهذا على تقدير انه ساخط
على من فعل القبيح منكرًا له في قلبه كما ورد في الحديث الشريف .
وفرض مع هذا أيضا القيام بالأمر بالمعروف والدعوة إلى الخير وإنذار
الناس بمواقب التفريط لعلمهم يرجعون

على هذا كان الإسلام في مبدأ ظهوره ! ولو ظل أهله على منهاجه
القوم وصراطه المستقيم لما ضل أحد منهم عن سعادته ولما أهمل أمر
التربية والإرشاد من الكفاية، وانفردت به فئة من الناس سارت في الجادة
زمنًا وانحرفت عنها أزمانًا وجمعت عنايتها في التربية الروحية فقط وأفرطت
في الزهادة كما أفرط الدين من قبلهم فأهملوا مصالح الدنيا ولم يوفوا البدن
حقوقه وذلك مما جاء الإسلام لتعديله... وبالجملة انهم حتى في طور كمالهم
لم تكن تربيتهم وإرشادهم على الوجه الذي يكفل للامة سعادة الدارين .
ولذلك لم يتبع طريقهم في كل عصر الا بعض الناس وصاروا فرقة مستقلة
سميت الصوفية عدها بعض المؤرخين من الفرق المشتقة من الإسلام

المخالفة لسائر الفرق في الاصول كالمعتزلة والشيعة وأهل السنة . وكيف لا وقد عاملهم فقهاء أهل السنة وحكامهم بأشد ما عاملوا به سائر الفرق فحكروا بيدعة بعضهم وكفروا كثيراً من أكابر شيوخهم وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ثم غلوا بعد ذلك في تعظيمهم والتسليم الاعمى لهم غلوا كثيراً من هم الصوفية وما هو شأنهم ؟ قال الامام القشيري في رسالته ما حاصله : ان المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتسم أفاضلهم في عصرهم بتسمية علم سوى الصحابة اذ لا أفضلية فوقها ثم سمي من أدركهم التابعين ثم من أدركهم تابعي التابعين ثم تباينت المراتب فقبل لخواص الناس ممن لهم شدة عناية بأمر الدين الزهاد والعباد ثم ظهرت البدع وحصل التسداعي من الفرق فكل فريق ادعوا ان فيهم زهدا فانفرد خواص أهل السنة المراعون انفسهم مع الله تعالى ، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف، واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الاكابر قبل المائتين من الهجرة اهـ

وقال العارف الشهاب السمروردي في عوارف المعارف بعد ما ذكر الصحابة والتابعين ما حاصله : « ثم لما بعد عهد النبوة وتوارى نورها واختلفت أيضا الآراء وكدر شرب العلوم شرب الالهوية وتزعزعت أبنية المتقين واضطربت عزائم الزاهدين وغلبت الجهالات وكشف حجابها ، وكثرت العادات وتملكت أربابها ، وتزخرفت الدنيا وكثر خطابها - تفرد طائفة باعمال صالحة وأحوال سنية واغتنموا العزلة واتخذوا لنفسهم زوايا يجتمعون فيها تارة وينفردون أخرى أسوة أهل العننة تاركين الاسباب مبتهلين الى رب الارباب فأثمر لهم صالح الاعمال وسني الاحوال وتنبأ صفاء الفهوم لقبول

العلوم وصار لهم بعد اللسان لسان وبعد العرفان عرفان وبعد الايمان ايمان كما قال حارثة: أصبحت مؤمنا حقا لما كوشف بمرتبة الايمان غير ما عهد فصار لهم بمقتضى ذلك علوم يعرفونها تعرب عن أحوال يجدونها فأخذ ذلك الخلف من السلف حتى صار رسما مستمرا وخبرا مستقرا في كل عصر وزمان فظهر هذا الاسم بينهم وتسموا به فالاسم سمتهم والعلم بالله صفتهم والعبادة حليتهم والتقوى شعارهم وحقائق الحقيقة أسرارهم « اه

أقول يعلم من كلام هذين الامامين في التصوف وغيرهما أن ما كانوا عليه لا يمكن ان تكون عليه الامة بتمامها لان العزلة والافتراد وترك العمل للدنيا يفضي الى ضعف الامة واضمحلالها وينتهي ذلك بزوالها. وأنه قد تجددت لهم علوم ومعارف وأحوال لم تكن تمهد عند سلفهم من الصحابة والتابعين وذلك كالسكلام على ما وراء الحس والعقل من العوالم الغيبية وهو ما يسمونه علم الاسرار قال ابن الفارض رحمه الله تعالى

وتم وراء العقل علم يندق عن مدارك غايات العقول السليمة
ولهم علوم كثيرة جدا تعلم أسماؤها من كتاب الفتوحات المكية
وانما جاءهم ذلك من الرياضات والمجاهدات النفسية والغاية بمعرفة ما
انطوي عليه الروح الانساني من الخواص والمزايا والقوى الادراكية والتأثيرية
ومن ذلك ما يسمونه الكشف والامداد والتصرف بالهمة. ولقد سبقهم
الى ذلك فلاسفة اليونان والهنود ولكن الصوفية وصلوا منه الى غاية لم
ينته اليها غيرهم. وكل هذا من علم أسرار الكون وطبائع الخلق كالعلم
بنواميس النور والكهربائية وخواصهما ولكنه لما جاء بصيغة دينية من
رجال الدين حدث عنه ما أشرنا اليه من حط الفقهاء والاحكام على أهله

وتكفيرهم وسفك دمايتهم كما فعلوا مع الفلاسفة الذين بحثوا في بقية أسرار الخلق وصنعوا علمهم بصيغة الدين وخلطوه بعلم العقائد الذي سموه (علم الكلام) وكان اضطهادهم للصوفية أشد من اضطهادهم للفلاسفة كما يعلمه من قرا التاريخ وما ذلك الا لان علم الصوفية اتعريب عن فهم الفقهاء أمس بالدين بل هو ثمرة التمسك بفضائل الدين وآدابه كما يقول عامة أصحابه ولذلك مزجوه بالقرآن والسنة مزجا ولكن جاء بعضه مخالفا لظاهر الشرع ليس غرضنا من هذه المقالة بيان مواضع الخلاف بين الفقهاء والصوفية ولا بيان الصواب والخطأ في ذلك وإنما نقول ان الصوفية اتعدوا بركن عظيم من أركان الدين وهو التهذيب علما وتخلقاً وتحققاً ولم يكن أمرهم في أول العهد الا عمل صالح وتخلق بالاخلاق القاضلة ثم لما دونت العلوم في الملة كتب شيوخ هذه الطائفة في الاخلاق ومحاسبة النفس فجاءوا بما قصرت عنه الفلاسفة الاولون ثم حدث فيهم الخوض في الكلام على ما وراء الحجاب وشرح ما تنتججه المجاهدة من الاذواق والمواجيد ومعجائب الخيال ومزجوا كلامهم بالفلسفة العقلية والطبيعية والعلمية وسلكوا في فهم القرآن مسلك طوائف الباطنية الذين كانوا أعظم صدمة على الاسلام فذهبوا الى ان للقرآن معاني غير ما تعطيه اللفظة وأساليبها وإشاراتنا وزعم الباطنية انما هي المقصودة بالذات وقد جاء الصوفية من ذلك بالصحيح والفاسد والباطل الذي يناهذ القرآن والدين بالكلية وقد ورد في حسان الاخبار وصحاحها «من فسر القرآن برأيه فليتبوا مقعده من النار» والمراد برأيه هواه الذي يؤيد مذهبه نعم ان لبعض الصوفية فهما في القرآن تركض له العقول وتميز عنه العلماء الفحول وقد أنكر الامام الغزالي على المتصوفة نحو

تأويل فرعون بالقلب القاسي والاحتجاج على مجاهدته بقوله تعالى (اذهب
الى فرعون انه طغى) وان كان الغرض به صحيحاً ولم من تحريف
الكلم عن مواضعه ما هو أسد من هذا كقول بعضهم في قوله تعالى (ان
الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها) الملوك هي الله « تعالى عن ذلك »
والقرية القلب والافساد تبديل الصفات المذمومة بالممدوحة وكقول
بعضهم في قوله تعالى « من ذا الذي يشفع عنده » من ذل ذي يشفع أي
من أذل نفسه ينال مقام الشفاعة عند الله تعالى . وقد قال ابن الصلاح
الفيقيه الشهير في فتاويه وجدت عن الامام أبي الحسن الواحدي المفسر
أنه قال صنف أبو عبد الرحمن السلمي حقائق التفسير فان كان اعتقد ان
ذلك تفسير فقد كفر ثم قال وأنا أقول ان الظن بمن يوثق به منهم اذا
قال شيئاً من ذلك انه لم يقله تفسيراً ولا ذهب مذهب الشرح للكامة
فانه لو كان كذلك كانوا قد سلكوا مسلك الباطنية وانما ذلك منهم نظير
ما ورد به القرآن والنظير يذكر بالنظير ومع ذلك فيآليتهم لم يتساهلوا بمثل
ذلك لما فيه من الابهام والالباس اه

أقول وقد وقع بالفعل الالتباس فضل به كثير من الناس وما كان
من غرائب الصوفية صحيح المعنى في ذاته كان خطوة موصلة لباطيل
الباطنية عند غير البصير المحقق والذي يدرك الفرق قليل . والتفسير
المطبوع المنسوب لسيدى الشيخ الاكبر هو لبعض الباطنية وفيه من
تحريف القرآن ما لم يأت بمثله محرفو التوراة ومع ذلك تزين به المكاتب
وتحترمه العلماء وقد قال العلامة النسفي في عقائده: النصوص على ظواهرها

والمدول عنها الى معان يدعيها أهل الباطن إلحاد، قال العلامة التفتازاني
وقصدتم بذلك تقي الشريعة بالكيفية

هذا من شر ما ترتب على مذهب التصوف من مضرة الأمة وهو
مع ما ذكرناه أولاً من الافراط في الزهادة وترك الفعل للدنيا وقد نفر
أهل العلم والتعليم من النظر في كتبهم لاسيما في هذا الزمان. ومن العجيب
ان أهل هذا العصر يقدسون شيوخ الصوفية ولا يعترضون على أحد
منهم ولا على شيء من عادات أهل طرائقهم وان كان بدعة وضلالاً بل
يقيمون النكير على من أنكر عليهم ولو بالحق ومع ذلك لا يلتفتون لكتبهم
ولا يتدارسونها وان كانت لأئمتهم الذين جمعوا بين علمي الظاهر والباطن
زعموا ان هذه كاليات لا يطالها إلا من أراد أن يتفرغ لها. وبذلك اندرس
علم تهذيب الاخلاق الذي هو روح الدين وقوامه لانه لا يوجد الا في كتبهم
وكتب الفلاسفة وكتبهم هي التي تذكره على الطريقة الدينية. أليس
من العجيب ان الأزهر - أعظم المدارس الدينية عند المسلمين - لا يقرأ
فيه علم تهذيب الاخلاق الذي لا دين بخلافه؟ اني كنت اطالع في كتب
الاخلاق والتصوف قبل طلب العلم وكنت مولماً بها واذكر اني قلت
لبعض شيوخنا اقرأ لنا الجزء الثالث من احياء علوم الدين بدلاً من
مقامات الحريري القليلة الجدوى فأبى علي ذلك متعللاً بما لا حاجة
لشرحه. فالصوفية قد نفروا العلماء من كتبهم بما ذكرناه من شأنهم فشدّة
زهادتهم في الدنيا كانت سبباً لزهادة المسلمين في الدنيا والآخرة مما
وكلامهم في الفواض التي تخالف ظواهر الشرع مع التسليم لهم فتحت
باباً لافساد العقائد وصار كل زنديق يدخل ما يشاء في كتب الدين منسوباً

لاولياء الصوفية وقد شرحتنا بعض هذه المقاسد في مقالات سابقة ولا سيما مقالات الموالد ومقالات سلطة مشيخة الطريق الروحية وبيناسريان النزغات الوثنية في المسلمين بسببهم . ومن يستطيع اليوم أن يجراً بالانكار على شيء من شؤونهم وان برأ منه الاثمة العارفين الذين ينسبونه لهم ؟ أي عاقل يصدق ان السيد عبدالقادر الجيلاني وهو امام في كل العلوم والمعارف الاسلامية يقول: اعطيت سجلا مد البصر فيه اسماء اصحابي ومريدي الى يوم القيامة وقيل لي قد وهبوا لك . أيقول هذا عبدالقادر والنبي الاعظم صلى الله عليه وسلم يقول لبنته سيدة النساء «يافاطمة يا بنت محمد اعلمي لا اغني عنك من الله شيئا» . هل الذين قال الله تعالى فيهم « اتخذوا احيارهم و رهبانهم اربابا من دون الله » كانوا يقبضون اولئك الاحبار والرهبان باعظم مما لقب به هذا المبد الخاضع لله تعالى عبد القادر الجيلاني الذي ذكروا من القابه التي ينادى بها «يا محيي الرمم يا باريء النسم يا ضياء السموات والارض » هل قالوا فيهم اعظم من قول بعض جهلاء اهل الطريق « ان احد مريدي النوث الاعظم مات فسأله الملكان عن ربه ودينه ونبيه فأجابهما بأنه لا يعرف الا شيخه عبد القادر فأراد الملكان ان يوقعا به العذاب فجاء النوث الاعظم فشفع له وأنجاه الله !! » اللهم ان هذا ضلال مؤد للاباحة يتبرأ منه الشيخ عبدالقادر قدس الله سره الطاهر وكل من يؤمن بالله واليوم الآخر ومثله في كتب اهل الطريق كثير

سيقول السفهاء من الناس ان مثل هذه الاتقادات لا ينبغي ان تنشر في الجرائد ولكن الكتب التي هي فيها قد طبعت مرارا كثيرة وتوجد

في كل بقعة من بقاع الارض يتبوأها المسلمون ولا نجد لها منكرًا فهل هذا هو الدين؟ . وسيقول اخرون منهم ان ذكرها كان لغرض من الاغراض . ونحن نقول ان الذي يحاسب على المقاصد والنيات وخطرات القلوب هو الله تعالى وما دام الكلام حقا فلا يمترض عليه « لنا الظاهر والله يتولى السرائر » . وقد تبين بهذا ومما نشرناه قبلا كيف كانت اطاعة هؤلاء الرؤساء مضلة للامة ، ولو أردنا ان نشرح حالة القوم اليوم لجننا بالعجب المجاب ، وكفالك ان مقام الارشاد ينال باجازة تشتري بريال واحد وما من أحد ينكر ان الفرق بين هذا الخلف وذلك السلف كالفرق بين الثرى والثريا وفقنا الله لمرضاته وألمنا رشدنا لتدارك ما مضى

شبهة وجوابها

ورد علينا رقيم من بعض قارئى جريدتنا انتقد فيه صاحبه ما كتبناه في شؤون الخلقاء وسيانهم وتقصيرهم في وظيفتهم الدينية ونصحنا بان لا نعود الى الخوض في مثل هذه المواضيع لان كتابتها في جريدة سيارة يطلم عليها الاجانب وأعداءنا وأعداء ديننا فيشتون بنا ويتخذونها حجة علينا

والجواب عن هذه الشبهة من وجهين: أولها ان ما كتبناه في ذلك هو قطرة من بحر التاريخ الزاخرة عند أولئك الاجانب أو الاعداء الذين يمنيهم المتقد فاذا سكتنا عنه فسكوتنا كتمان له عن أبناء ملتنا الذين يجهله أكثرهم لاهلهم علم التاريخ وظنهم انه لا فائدة فيه الا التسلية بل سمعت بعض الشيوخ الذين يدعون الفقه يقول ان قراءة التاريخ مكرهه

لان فيه كذبا وتمليله هذا يقتضي ان قراءة أكثر كتب الحديث والتفسير
مكروهة لان فيها أحاديث موضوعة وضعيفة ومنكرة وقصصا كاذبة
باطلة بل لا يبعد أن يقال على ذلك ان قراءتها محرمة لان الكذب في
تفسير كتاب الله تعالى والاختلاق على نبيه من أعظم الكبائر لا يقاس
بها الكذب في سيرة ملك أو حاكم أو خليفة أو عالم .
وفي كتب الفقه التي يشغل بها المنفق المذكور كثير من الاقوال الباطلة
التي لا يصح العمل ولا الافتاء بها والصواب ان شوب الحق بشي من الباطل
لا يقتضي ترك الحق وانما يقتضي النظر الدقيق والتمحيص ليخرج الحق من بين
الباطل كما يخرج اللبن من فرث ودم خالصا للشاربين . وانما ذكرنا هذا لتبين
لحضرة المتقدم قول شيوخنا في التاريخ الذي هو من أشد المنفرات عنه ليعلم
مقدار حاجتنا الى استخراج فوائده وعرضها على أمتنا وأشعارهم أنهم لا يمكن
لهم الوقوف على حقيقة مرض الامم الا منها ومن لم يعرف مرضه لا يسعى
لعلاجه وادا سعى فان سعيه يكون عبثا وضلالا ، بل خيبة ونكالا ، وما مثلنا
مع الاجانب الذين يرتأي أصحاب الافكار الضعيفة ان نسترضعنا عنهم
بأسبابه ونتائجها الا مثل النعامة التي ترى الصياد يريد اقتناصها فتخفي رأسها
وتستره لكيلا يراه توها ان عمماها عنه يوجب عمها عنها وأن ذلك عين
النجاة ، وحرام على من يجهل تاريخ الغابر وحالة العصر الحاضر ان يقول
هذا شيء يضر الامة وهذا شيء ينفعها ، وقد منبنا والصبر بالله بقوم جهلاء
في ثياب علماء يفسون الامة ويفررون بها توها أن كل من يقرأ تنازع
العوامل في النجوى يعلم تنازع الامم وكل من يعرف احوال تقديم المسند
والمسند اليه وتأخيرها يعرف أسباب تقدم الامة وتأخرها وكل من

تهدد ر للفتوى في مسائل الرضاع والطلاق وصحة الاجارة والسلم له ان
يفتي في صحة الشعوب من أمراضها، واطلاقها من وثاقها، بل وقنا في
فوضوية الافكار والعلم فصار كل فرد منا مَفْنَأً^(١) ولا برهان يتوكأ عليه،
ولا رئيس يرجع اليه، سياسة السواد الاعظم منا اليوم هي كتمان الامراض
والسيئات، وان انتهى ذلك بالمات، وتكبير ما عساه يوجد من حسنة
حتى تكون الحبة قبة والذرة جبلا، بل اختلاق الحسنات، والكذب فيها
على الاحياء والاموات، لتسبح الامة في بحر الفرور، الى أن تهلك وتبور،
وقد رأينا من سير الامم الحية أن كتابها وخطبائها يملؤن الدنيا صراخا
وعويلًا اذا صدر من أمتهم سيئة وبهولون أمر تلك السيئة بما يزعمون
به الي ازلتها وربما يحقون الحسنات ولا سيما الاستعداد الحربي لما لا يخفى
من الاسباب

(الوجه الثاني) ان كل ما نكتبه في الاتقاد على خلفاء المسلمين
وأمرائهم وعلماهم وأهل الطرق وجميع رجال الدين غرضنا الاول به بيان
براءة الدين الاسلامي نفسه مما يرميه به أعداء المسامين من الاوربيين
الذين يزعمون أن جميع ما حل بهم من الضمف والضمة والعلم والاستبداد
وفساد الاخلاق واختلال الاعمال الذي يكاد يمحو ساطهم من لوح
البسيطة ويجعلهم أذل الشعوب وأقربها - كل ذلك ما حل بهم الاسبب
دينهم فهو الذي جربهم البلاء، وطوحهم في مهاوي الشقاء، والحق ان هذا
البلاء والشقاء ما جاءهم الا من الانحراف عن الدين وما كانت أمة لتتحرف
عن دينها دفعة واحدة وانما يكون ذلك بالتدريج، ينحرف الرؤساء والامراء

(١) أي عزباً يدخل في كل ما بين له ويخوض في كل فن يرض له

فأول لهم الملاء - علماء السوء - فتبهم الدهماء وهكذا كان شأن الذين جاؤا من قبلنا واتبنا سننهم شبرا بشبر وذراعا بذراع ولا يتم ذلك إلا بعدة قرون .

لا ريب ان اظهار براءة الدين بري أهله رؤسائهم وصرؤسيهم بالتصير فيه والميل عن هديه، هو أعظم خدمة له ولاهله، والا كان النقد بل النقض موجها للأصل الفرع معا وما يعقلها إلا العالمون . ويدخل في تبرئة الدين مما ذكر بيان انه أساس للسمادة متين لا يمكن أن يقوم صرح مجد أهله الا عليه خلافا لمن أعشى أبصارهم شعاع مآنة أوربا فأروا ان التقليد الاعمى لها هو الذي ينهض بالامة . وهل زادنا هذا التقليد الأعمى الا شقاء وتعااسة؟ هل نهضت أمم أوربا الا باستقلال الفكر والارادة واثاق الكلمة والجد في العمل والاعتماد على النفس في الاعمال الكسبية مع الاعتقاد بانه لا قوة ولا سلطان وراء ما يحس به ويعلمه الناس الا الله تعالى وحده؟ وهذا عين ما جاء به القرآن وقرره الاسلام . واعترف بعض المنصفين من علماء أوربا وحكامها بأن نشأة مآنة الحديثة انما كان رشاشا من نور الاسلام فاض عليها من الاندلس بأيدى تلامذة ابن رشد الفيلسوف الاسلامي ومن صفحات الكتب التي أخذوها في حروبهم مع المسلمين في الغرب والشرق والغرض الآخر من انتقاداتنا النصيحة لرؤسائنا اليوم أن يتداركوا ما فرط من بعض سلفهم ويصلحوا ما فسد من أمور أنفسهم ويعطوا وظائفهم حقها ويسيروا بالامة في المنهاج الذي نهجه الله تعالى لها والله على ما نقول وكيل